سيميائية المكان في القرآن الكريم
Semiotic of places in Holy Qur'an

زهرة عبد العزيز بلقاسم الثابت[1]
Dr.Zohra Abdelaziz Belgacem Thabet[1]

DOI: 10.15849/ZJJHSS.221130.01

الملخص

يتبوّأ المكان منزلةً مهمةً في نصوصِ القَصَصِ القرآنيّ إذ هو مُقَوِّمٌ أساسيٌّ مِنْ مُقوِّمات بِنيَةِ الخِطابِ السَّرديّ. وإنَّ المتصفِّحَ لنصِّ القرآن ليتنبّه إلى توفّر هذا النصّ على أماكن عديدة تباينت بين الجبل والكهف والغار والبحر والجبّ والقرية والبيت الحرام وبطن الحوت والنخلة، وهي أماكن طفحت بعديد المعاني الرَّمزيّة حتى أضحَتْ علامةً سيميائيَّةً باهرة. وتطمح هذه الورقة العلميَّة إلى الكشف عن هذه الدَّلالات وتَقَصّي أبعاد هذه الأماكن في نصّ القرآن الكريم.

الكلمات المفاتيح: السيميائية، المكان، القرآن الكريم، الجبل، الكهف، الغار، البحر.

Absract

Space occupy an important place in the textes of the Qur'anic stories. It is an essential component of the structure of narrative discourse. The reader of the Holy Qur'an is alerted to the avaibility of this text on many places that varied between mountain, the cave, the pit, the sea, the village, the sacred house, the belly of the whale, the palm, .These are places that brimmed with many symbolic meanings until they became a brillant semiotic sign. This scientific paper aspires to reveal these connotations and invistigate the dimensions of these places in the text of the Holy Qur'an.

Key Words: Semiotic – space- Holy Qur'an- mountain- cave- pit- sea- ..

[1]جامعة القيروان – تونس– كلية الآداب والعلوم الإنســـانية القيروان – اللغة العربية–أديان مقارنة

* للمراسلة: thzohra@gmail.com

تاريخ استلام البحث: 20222/02/18

تاريخ قبول البحث: 2022/07/05

[1]University Kairouan- Tunisia, University of Arts and Humanities Kairouan, Arabic Department, Comparative religions

* Corresponding author: thzohra@gmail.com

Received: 18/02/20222

Accepted: 05/07/2022

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

المقدمة

للقرآن الكريم منزلة أثيرة في الضمير الديني الجمعي إذ هو دستور المسلمين المنظم لحياتهم، غير أن هذا النص كان في مواطن عديدة منه نصا عميقا، فلم يكن "**مساحة مسطحة تشف عن معناها أو عمقًا يختبئ فيه المعنى وإنما هو حيز تتعدد سطوحه وعمق لا قرار له**"[1]، إذ انطوى هذا الخطاب على فراغات وثقوب ما كان للمرء أن يدرك كنهها لولا أن عمد إلى قراءة حصيفة لما بين سطوره قراءة "**تتيح لقارئه الولوج إلى عالمه والتجريب في حقله والتنزه بين منعرجاته، والتعرف إلى تضاريسه واختيار موقع ما على خريطته**"[2]. خصوصا وأن هذا النص يرشح بالمجاز ويعج بالرموز التي لا يمكن فك معانيها إلا بالتأويل ذلك أن المسلمين قد أصبحوا "**منذ انقطاع الوحي يعيشون ما يسمى بالوضع التأويلي**"[3]، لأن "**القرآن نص ينص على التأويل ويحتمل التأويل ولا تكتنه معانيه إلا بالتأويل**"[4]، وهو حمال أوجه.

وإن المتدبر لنص الوحي الإسلامي يلحظ أن المكان شكل في هذا الخطاب علامة سيميائية باهرة، ورمزا يتطلب فعلا تأويليا، باختصار لقد كان المكان في هذا النص الديني المقدس رمزا "**يهب لنا معنى إضافيا يدعونا للتفكير والتفكر**"[5]. والمكان في هذا النص متعدد فهو الجبل والغار والكهف والجب والبحر والبئر والقرية والبيت الحرام وبطن الحوت والنخلة وغيرها من الأماكن التي تتأبى عن الحصر وهو مكان متنوع في دلالاته إذ هو تارة أمارة على حضور المقدس وعلى الخلود وتارة أخرى دال على الخلاص أو الأمان أو العقاب أو الحياة. ونروم من خلال هذه الورقة العلمية الحفر في المعاني الثاوية في الأماكن التي ذكرنا والتي يفيض بها نص القرآن. فما الدلالة السيميائية التي انطوت عليها هذه الفضاءات؟ وما أهم المعاني القصية التي اكتنزتها؟

مشكلة الدراسة

قد يكون موضوع المكان في القرآن الكريم مألوفا إذ عديدة هي الدراسات التي طرقت هذه المسألة، غير أننا نعدم وجود دراسة تناولت البعد السيميائي الذي ثوته الأماكن في نص الوحي الإسلامي؛ لذلك وطن الباحث نفسه في هذه الدراسة على الحفر فيما تكتنزه الأماكن من دلالات خفية لأن المكان بدا له نصا رامزا بامتياز بل منتجا للدلالة صانعا لها في بنية النص.

أهداف الدراسة

تطمح هذه الدراسة إلى فك شفرة المكان في نص القرآن الكريم وإماطة اللثام عن المعاني التي دلت عليها أماكن عديدة طي هذا النص المقدس، إذ المكان كان دالا على معاني الخلود والأمان والسكينة والوحدانية وحضور المقدس وتجدد الحياة.

---

[1] حرب، علي، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، ط1، 1993، ص22.

[2] المرجع السابق، ص25.

[3] الشرفي، عبد المجيد، الإسلام والحداثة، تونس، الدار التونسية للنشر، سلسلة موافقات، 1990، ص17.

[4] حرب، علي، نقد الحقيقة، ص26.

[5] الزاهي، فريد، النص والجسد والتأويل، إفريقيا الشرق، المغرب، 2003م، ص65.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

منهج الدراسة

استأنست الدراسة بالمنهج الوصفي والمنهج التأويلي من أجل الحفر في المعاني التي حوت الأماكن بين دفتيها في نص القرآن الكريم.

فرضية الدراسة

تفترض هذه الدراسة أن المكان مقوم أساسي من مقومات السرد في القرآن الكريم لأن هذا النص الديني هو نص سردي بامتياز وتفترض أيضا أن هذا المكان إنما هو علامة سيميائية تحتمل القراءة والتأويل وهو شفرة لا بد من فك معانيها إذ المكان ينطوي على معاني قصية متوارية.

مدخل اصطلاحي

في مفهوم السيميائية

للسيميوطيقا أو السيميولوجيا مكانة مهمة في المناهج النقدية المعاصرة إذ هي قد "**ساهمت بقدر كبير في تجديد الوعي النقدي من خلال إعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى**"[1] وغزت حقولا معرفية عديدة كالأنثروبولوجيا والسوسيولوجيا والتحليل النفسي والتاريخ والآداب والفنون والسياسة وغيرها وتوسعت دائرة السيميائيات فشملت "**كل المناطق التي تغطي الوجود الإنساني بدءا باللسان وانتهاء بكل مظاهر السلوك الإنساني: اللغة واللباس والعلاقات الاجتماعية والطقوس الأسطورية والدينية**"[2].

ورغم أن الحدود النظرية لهذا العلم لم تستقر إلا في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين إلا أننا لا يمكن أن ننكر ما زخر به التراث الإنساني من إرهاصات سيميائية خصوصا وأن الإنسان هو الكائن الوحيد المنتج للدلالات لأنه كائن رامز بامتياز كما صرح بذلك كاسيرر، وبذلك طرح موضوع العلامة التي ستكشف عن معين من الدلالات المتصلة بالإنسان لا ينضب، "**بل يمكن القول إن فلسفة اللغة من الرواقيين إلى كاسيرر ومن القروسطيين إلى فيكو (Vico) ومن القديس أوغستين إلى فتغنشتاين لم تكف عن مساءلة أنساق العلامات وبذلك تكون هذه الفلسفات قد طرحت بشكل جذري قضية السيميائيات**"[3].

كما لا يمكن أن ننكر أيضا أن العرب قد عرفوا مفهوم السيمياء، فقد أسس الجاحظ مثلا رؤية سيميائية واضحة المعالم عندما توقف عند مفهوم البيان وأشار إلى خمسة أنظمة سيميائية مختلفة هي اللفظ والإشارة والعقد والخط والنصبة فهو القائل: "**وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الحال التي تسمى نصبة... والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها وحلية مخالفة لحلية أختها**"[4]. فهذا المفهوم لم يكن غريبا عن العرب ولا شك أن المدارس اللسانية الغربية قد أفادت منه، غير أن المتقفي لمعنى مصطلح السيميائية ليتنبه إلى فوضى في المصطلح إذ يتقاطع مصطلح السيميوطيقا مع

---

[1] بنكراد، سعيد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، الطبعة الثالثة، 2021م، ص10.

[2] المرجع السابق، ص11.

[3] المرجع السابق، ص27.

[4] الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص76.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

مصطلح السيميولوجيا، واللافت للانتباه أن هذين المصطلحين أطلقا في الأصل على فرع من الطب هو "فرع التشخيص (diagnostique) من أجل الكشف عن المرض من خلال الأعراض الظاهرة على المريض ولا سيما في التراث الإغريقي حيث عدت السيميوطيقا جزءا من علم الطب"[1].

ويعود الفضل في إرساء المصطلح الأول إلى الفيلسوف الأمريكي شارلز ساندرس بيرس (Charles S. Peirce) الذي اعتبر أن السيميوطيقا هي "**مذهب الطبيعة الجوهرية والتنوعات الأساسية للدلالة الممكنة، بمعنى نظرية عامة للعلامات وتمفصلاتها في الفكر الإنساني، ثم إنها صفة لنظرية عامة للعلامات والأنساق الدلالية في كافة أشكالها وبالتالي تعد سيميولوجيا بيرس مطابقة لعلم المنطق**"[2].

أما المصطلح الثاني "السيميولوجيا" (sémiologie) فينسب إلى اللساني الفرنسي دي سوسير (De Saussure) الذي طرحه في كتابه "محاضرات في اللسانيات العامة"، وهو ينحدر في الأصل من الكلمة اليونانية "**(sémion) أو (sémaino) والمتولدة هي الأخرى من الكلمة (séma) وتعني العلامة (الدليل) (signe) وهي بالأساس الصفة المنسوبة إلى الكلمة الأصل (sens) أي المعنى، أما عن لفظة لوجيا (logie) فتعني العلم، وبالتالي فإن كلمة السيميولوجيا أو السيميوطيقا من الناحية اللغوية تعني علم العلامات أو العلم الذي يقوم بتحليل المعاني عن طريق العلامات**"[3].

ويستشف مما تقدم ذكره أن هذين المصطلحين متقاربان في المعنى لأنهما يتفقان في موضوع واحد هو دراسة أنظمة العلامات أيا كان مصدرها وقد ذهب الباحث جميل الحمداوي إلى رفع اللبس بين هذين المفهومين حين اعتبر أن "**السيميولوجيا عبارة عن نظرية عامة وفلسفة شاملة للعلامات أو هي بمثابة القسم النظري في حين تعد السيميوطيقا منهجية تحليلية تشغل في مقاربة النصوص والخطابات والأنشطة البشرية تفكيكا وتركيبا وتحليلا وتأويلا أو هي كذلك بمثابة القسم التطبيقي للسيميولوجيا**"[4]. ولكن بعض الدارسين حرصوا على تطوير مشروع دي سوسير عن السيميائية من ذلك مثلا أن بارت (Barth) أشرع الباب للعلامات غير اللسانية لأن تكون محل الدراسة السيميائية فهو القائل: "**يجب من الآن تقبل إمكانية قلب الاقتراح السوسيري، فليست اللسانيات جزءا ولو مفصلا من السيميولوجيا ولكن الجزء هو السيميولوجيا باعتبارها فرعا من اللسانيات... إن المعرفة السيميائية لا يمكن أن تكون اليوم سوى نسخة من المعرفة اللسانية لأن هذه المعرفة يجب أن تطبق على الأقل كمشروع على أشياء غير لسانية**"[5]. وبذلك تعددت اتجاهات السيميائية التي يمكن أن نوزعها على النحو التالي:

- سيمياء التواصل: وأهم روادها جورج مونان وبريتو، ويقوم هذا الاتجاه على أن وظيفة اللسان الأساسية التواصل.
- سيمياء الدلالة: وزعيم هذا الاتجاه رولان بارت الذي يرى أن البحث السيميائي هو دراسة الأنظمة الدالة وذلك من خلال التركيز على الثنائيات اللسانية: اللغة/ الكلام، الدال/ المدلول، التقرير/ الإيحاء، المركب/ النظام.

---

[1] انظر سيفون، باية، محاضرات في السيميولوجيا، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، سنة 2015-2016م.

[2] صبطي، عبيدة، وبخوش، نجيب، مدخل إلى السيميولوجيا، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009م، ص12.

[3] المرجع السابق، ص14.

[4] الحمداوي، جميل، السيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، الناظور، تطوان، المغرب، الطبعة الثانية 2020م، ص9.

[5] بارت، رولان، مبادئ في علم الدلالة، ترجمة محمد البكري، عيون المقالات، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1986م، ص30-39.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

- سيمياء الثقافة: ومن أبرز أعلام هذا الاتجاه لوتمان، أمبرتو إيكو، جوليا كريستيفا، وهو اتجاه يتأسس على اعتبار الظواهر الثقافية موضوعات تواصلية وأنساقا دلالية.

في مفهوم المكان

يبدو المكان من المفاهيم الجوهرية التي من الضروري الوقوف عندها لأن هذا المفهوم ملتبس إذ هو يتقاطع مع مفهومين مجاورين هما مفهوم الفضاء الذي يحمل في طياته الخواء والفراغ والخلاء، والحيز الذي يشمل معطيات المكان من نتوء ووزن وحجم وشكل وامتداد وغيرها. ونحن إذا ما تقفينا أثر مفهوم المكان في مظانه المعجمية ألفيناه دالا على موضع كون الجسم وهو حصوله أو الحاوي للشيء يجمع على أمكنة وأماكن، وهو في رأي أكثر اللغويين على وزن "مَفْعَلٌ". أما عند المتكلمين فهو "**اجتماع جسمين حاو ومحوي وذلك أن يكون سطح الجسم الحاوي محيطا بالمحوي**"[1] أو هو " **الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وتنفذ فيه أبعاد**"[2].

وشغل المكان أيضا الفلاسفة فاعتبره أفلاطون غير حقيقي وهو الحاوي للموجودات المتكثرة ومحل التغير والحركة في العالم المحسوس عالم الظواهر غير الحقيقي[3]، أما أرسطو فرأى أن المكان هو "**الحاوي الأول وهو ليس جزءا من الشيء لأنه مساو للشيء المحوي وفيه الأعلى والأسفل**"[4]. واعتبر باشلار المكان "**ما عيش فيه لا بشكل وضعي بل بكل ما للخيال من تحيز، وهو بشكل خاص في الغالب مركز اجتذاب دائم**"[5]. وأيا كانت التعريفات فإننا نميل إلى أن المكان "هو مجرد اصطلاح على وجود"[6]، وجود كائنات، أشخاص، شجر، حيوان، نبات. ومفهوم المكان في القرآن الكريم لا يحصل من خلال الوصف المادي فحسب بل من خلال العلاقة الجدلية التي تربط بين هذا المكان والمقدس والنبي.

سيميائية المكان

إن قراءة سيميائية للمكان في نص القرآن الكريم تحيلنا على إدراك جديد للمكان لأنه لم يكن "**فضاء فارغا ولكنه مليء بالكائنات وبالأشياء، والأشياء جزء لا يتجزأ من المكان، وتضفي عليه أبعادا خاصة من الدلالات**"[7]، فالمكان في هذا النص المقدس كان عنصرا مهمّا أثث الخطاب السردي في القصص القرآني وكان موحيا وباعثا على القراءة المحفزة لمعانيه لأنه كان حاملا لشفرات سيميوطيقية تنتظر فكها وتأويلها لإماطة اللثام عن اللامرئي فيها لأن السيميائيات ليست إلا "**تدريبا للعين على التقاط الضمني والمتواري والمتمنع، لا مجرد الاكتفاء بتسمية**

---

[1] الراغب، المفردات، ص731.

[2] الجرجاني، التعريفات، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى، 1405هـ، ص292.

[3] أسماء، أسماء، جماليات المكان في روايات جبرا إبراهيم جبرا، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن، 2001م، ص9.

[4] فهد، حسين، المكان في الرواية البحرينية، دراسة في ثلاث روايات (الجدوة، حصار، أغنية الماء والنار)، دار فراديس للنشر والتوزيع، البحرين، الطبعة الأولى، 2003م، ص55.

[5] باشلار، غاستون، جماليات المكان، ص179.

[6] جمعة، مصطفى عطية، مصطلح المكان المفهوم والسيميوطيقا، مقال صادر بجريدة الرأي، بتاريخ 17 أغسطس 2014م.

[7] قاسم، سيزا، القارئ والنص، المجلس الأعلى للثقافة القاهرة، 2002م، ص48.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

المناطق النصية أو التعبير عن مكونات المتن"[1]، وإن قراءة حصيفة للمكان تجعلنا ننتبه إلى أن هذا الفضاء كان متعددا ومتنوعا لذلك تعددت دلالاته ومعانيه، حتى أنه بإمكاننا توزيعه إلى صنفين مكان سماوي وآخر أرضي.

العالم السماوي

نقف في هذا العالم عند مكانين متقابلين هما الفردوس والجحيم. غير أن اهتمامنا سينصب أساسا على الجنة باعتبارها أولى الأماكن التي أثثت عالم السماء وهي المكان المهم الذي لولاه ما كان الجحيم. وهو المكان الأصل الذي منه انبثقت سائر الأماكن على وجه البسيطة.

- **الجنة**

تبدو الجنة أول مكان عرج عليه القرآن الكريم وأفاض في وصفه باعتباره فضاء سرمديًّا مقدسا يأويه المؤمنون الصالحون[2] والمتقون[3]، وقد بدت فضاء يانعا حيث الأنهار الجارية والأكل الدائم مثلما يجليه قوله تعالى في سورة الرعد في ما نصه: "**مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ اتَّقَوا**"[4]، وبدت أيضا فضاء زاخرا بالثمرات منها الأعناب والزيتون والرمان والنخيل[5] وفضاء تزين فيه أصحابه بأبهى الحلل كالثياب المصنوعة من السندس والإستبرق[6] والحرير[7]، والأساور من الذهب واللؤلؤ[8]، لقد كانت الجنة علامة على النعيم الخالد، إنها باختصار فضاء الملذات الأبدي.

ولكن الجنة تستوي أحيانا نقطة عبور للعالم الأرضي المدنّس حين تكون فضاء للخطيئة وإتيان المحظور، وحين يأمر الله آدم وحواء بالاستمتاع بملذات الجنة وينهاهما من مغبة الأكل من الشجرة المحرمة وذلك في قوله: "**يَا آدَمُ اُسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّالِمِينَ**"[9]، ولكن آدم وحواء نكثا العهد مع الله وأكلا من الشجرة المحرمة فكان الفردوس فضاء لارتكاب المحظور والمروق عن سلطة المقدس، وبؤرة لكُنه الجسد والتعرف على حقيقة الإنسان عبر إدراك معنى العُري، ذلك أنه من ورق هذه الجنة طفق الزوجان يخصفان عليهما[10]، خجلا مما اقترفت يداهما، إذ الأكل من الشجرة المحرمة لم يورثهما إلا العقاب الإلهي والطرد من هذا الفضاء المقدس، فكانت بذلك الجنة بوابة للانفتاح على عالم مغاير للعالم السرمدي هو العالم الأرضي الزائل بكل ما يحمله من أمكنة تباينت بين الجبل والكهف والغار والكهف والجب والبحر والقرية والبيت الحرام وبطن الحوت والنخلة.

---

[1] بنكراد، سعيد، السيميائيات: مفاهيمها وتطبيقاتها، ص15.

[2] انظر: البقرة 2: 82، والعنكبوت 29: 58.

[3] انظر: الشعراء 26: 90، ومريم 19: 63.

[4] الرعد 13: 35.

[5] انظر: الأنعام 6: 141.

[6] انظر: الكهف 18: 31.

[7] انظر: الحج 22: 23.

[8] انظر: فاطر 35: 33.

[9] الأعراف 7: 19.

[10] انظر: الأعراف 7: 22.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

- **العالم الأرضي**
  - **الجبل**

لا شكّ أن الجبل مكوّن أساسي من مكونات هندسة هذا الكون فهو على هذا النحو عنصر كسمولوجي مهم ألمعت إلى النصوص الأسطورية القديمة قبل أن تذكره النصوص الدينية المقدسة وقبل أن تقره الدراسات الأثرية كحقيقة جغرافية. ذلك أن المتقفي لأثر كلمة الجبل في الكتابات المسمارية القديمة يلحظ أن اللغة السومرية قد عرفت الجبل "**بصيغة كور (KUR) وهذه اللفظة كانت تدل كذلك على البلدان فيما عرف في اللغة الأكدية بصيغة شادو (Sadû) كما عرف بصيغة خارو (harru) وهو تعبير سامي عن الجبل، أي أن هذه المفردة قد انتقلت من إحدى اللغات السامية الغربية وتحديدا من اللغة العبرية والكنعانية من صيغة (هار) إلى الأكدية وتحديدا في الألف الأول ق.م. في العصر الآشوري الحديث (612-911ق.م.) في حين عرفت السلسلة الجبلية بصيغة خور ساك (HUR SAG) بالسومرية أو خورشانو (hursanu) بالأكدية، وهو المصطلح نفسه الدال على إقليم الجبال**"[(1)].

وقد اعتبرت الجبال في الأساطير القديمة أعمدة السماء التي تمسكها عن السقوط على الأرض كما يتضح ذلك في الميثيولوجيا الإغريقية المعبَّر عنها بالإله الأطلس[(2)]، أما في بلاد الرافدين فالجبل أمارة دالة على قوة الملك والإله؛ لذلك تسمى به ملوك أشوريون مثل آشور ناصر بالي الثاني وتوكولتي نينورتا الثاني وتسمى به أيضا الملك الأكدي سرجون الأول حين اجتاز جبال بورشخندا وكذلك الملك الآشوري سرجون الثاني. كما يحضر الجبل أيضا في بعض الأساطير الأخرى كأسطورة نينورتا ابن الإله أنليل الذي تتشقق الجبال لصرخته وتهتزه السماء لصوته وأسطورة أنانا التي تحارب جبل أبيخ لتخضعه بعد ما كان شامخا.

وامتد ذكر الجبال أيضا في النصوص المقدسة أيضا حيث ذكرت في مواطن عديدة من الكتاب المقدس فهي المكان الذي أنزلت فيه الوصايا العشر على موسى[(3)] وهي مكان خيمة الاجتماع[(4)]، بل هي مسكن الرب[(5)] وموضع المذابح التي كانت تقام من أجله[(6)]. أما في نص القرآن الكريم فالجبل يحضر في أربعين موضعا تقريبا تباينت بين صيغتي الإفراد والجمع. وقد جاء الحديث عنها على وجوه مختلفة غير أن اللافت للانتباه أنها جاءت في الأغلب دالة على حضور المقدس وسطوته وجبروته.

فالمتصفح لقصة موسى في نص الوحي الإسلامي يلحظ أن الجبل أو جانب الطور أو الوادي المقدس طوى هو المكان الذي اتصل فيه الدنيوي بالإلهي لأن "**الجبل المقدس هو محور العالم الذي يصل الأرض بالسماء**"[(7)] حيث حاول أن يتواصل فيه موسى النبي الإنسان بربه حين "**آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا**"[(8)]، فكانت

[(1)] عبد الله الجميلي، عامر، الجبل في الكتابات العراقية القديمة، كلية الآثار الموصل، ص3.

[(2)] انظر: شعراوي، عبد المعطي، الأساطير الإغريقية، الهيئة المصرية للطباعة والنشر، ج1، ص74.

[(3)] انظر: الخروج 24: 12-18.

[(4)] انظر: الخروج 25: 26.

[(5)] المزامير 68: 16.

[(6)] انظر يشوع 8: 30.

[(7)] إلياد، مرسيا، المقدس والدنيوي، ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى، 1987م، ص39.

[(8)] القصص 28: 29.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

النار أمارة دالة على حضور الإله "**ولا عجب من ذلك في حقيقة الأمر فالنار كانت عند الشعوب هبة من الإله وهي التجلي المنير لكل إله**"[1]، فالنار بما تحمله من دلالات النور والطهارة قد أثثت على هذا النحو فضاء الجبل فاستوى فضاء للطهر والقداسة لأن هذا المكان عال "**والأماكن العالية كانت المراحل الأولى للارتقاء إلى القمم**"[2].

فكان الجبل فضاء مقدسا شاهدا على حضور الإله الذي خاطبه موسى قائلا: "**يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**"[3]، ولكنه كان غيبا محتجبا لن يقدر موسى على رؤيته وإن أضمر رغبة في ذلك[4]، بل إنه قد خر صَعِقًا[5] حين أصر على رؤية الإله. فكان الجبل شاهدا على حضور المقدس وشاهدا على جبروته بل شاهدا على كلام الإله وعلى تعاليم الدين حين خاطب الله موسى قائلا: "**يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى إِنَّنِي أَنَا اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى**"[6]. فالجبل كان ههنا فضاء الوحي وفضاء القداسة لأن الدين "**لا يستقيم إلا في ظل الأرض المقدسة**"[7].

- **الغار**

يتقايض الغار في نص القرآن الكريم دلالة القداسة مع الجبل. إذ يستحيل هو الآخر في تجربة محمد النبوية فضاء لنزول الوحي وإن تكتم النص المقدس عن ذكره لكنه يغدو الفضاء الأصل الذي أومأت إليه أغلب النصوص الهوامش حينما فسرت نص الوحي وأماطت اللثام عما غمض في "سورة العلق". فابن هشام مثلا يذكر في سيرته أن جبريل قد خاطب محمدا في غار حراء فهو القائل: "**حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر، شهر رمضان، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله**"[8]. والقارئ لآيات هذه السورة يقف عند حوار بين الله ومحمد، حوار يأمر فيه الإله عبده بالقراءة فيستوي الغار فضاء للغيب والوحي والرؤيا وليس غريبا أن تُتّخذ النصوص الثواني من الغار فضاء لأحداث قصة نزول الوحي على محمد لأنه "**كان عن جدارة فضاء العزلة والتزهد وميدان الاصطفاء ومكان التقاء المخلوقات العجيبة الخارقة**"[9]، بل إنه "**كان مستودع الأسرار ومنطق الغيب يتم فيه ما لا يتم في غيره من فضاءات**"[10]، فالغار يستحيل بهذا المعنى إذن مكانا لالتقاء المقدس إنه همزة الوصل التي تربط عالم السماء بعالم الأرض. وهو إلى جانب ذلك مكمن الأسرار والألغاز. إنه الفضاء الأحجية لأنه الفضاء

---

(1) السعفي، وحيد، العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، الأوائل للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، الطبعة الأولى، أيار 2006م، ص580.

(2) لوك، بنوا، إشارات رموز وأساطير، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، د.ت، ص49.

(3) القصص 28: 30.

(4) انظر: الأعراف 7: 143.

(5) الأعراف 7: 143.

(6) طه 20: 11-16.

(7) السعفي، وحيد، العجيب والغريب، ص429.

(8) ابن هشام، محمد، السيرة النبوية، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2004م، ج1، ص142.

(9) السعفي، وحيد، في قراءة الخطاب الديني، نجمة للدراسات والنشر والتوزيع، تونس، 2008م، ص110.

(10) المرجع السابق، والصفحة نفسها.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

الذي سينتقل عبره مجتمع محمد من واقع الوثن والجاهلية والفوضى إلى واقع الإسلام والنظام، باختصار إن الغار كان "**لا بد منها نقطة عبور العابر من ضفة إلى أخرى، من ضفة النظام السائد إلى ضفة الدين الجديد**"[1].

ولكننا قد نعثر على دلالة للغار أخرى إذ هو الملاذ الآمن للنجاة ويتضح ذلك في قوله تعالى: "**إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ الله مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةَ الله هِيَ الْعُلْيَا والله عَزِيزٌ حَكِيمٌ**"[2]، إذ لاحق الكفار النبي محمدا ورفيقه أبا بكر الصديق بغية قتلهما فكان الغار مأمنهما ومأواهما الذي لاذا إليه بالفرار فكان فضاء لاستمرارهما على قيد الحياة ولاستمرار دين الإسلام باعتباره دين الحق والدين الأصيل.

- **الكهف**

يلوح لنا الكهف في القرآن الكريم فضاء آوى أهل الكهف والرقيم مع كلبهم وقد كان ملاذهم الآمن بتدبير إلهي، ذلك أنهم –وحسب ما تواتر ذكره في المرويات والتفاسير– لقوا عنتا كبيرا من قبل قومهم الكافرين وملكهم الجبار دقينوس الذي فرض عليهم عبادة الأصنام والوثن لكنهم رفضوا معلنين تشبثهم بدينهم مرددين: " **رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا**"[3] وهربوا خشية أن يلاحقهم هذا الملك فيؤذيهم أو يفتنهم عن دينهم لأنه "**ملك عابد وثن، دعاهم إلى عبادة الأصنام فهربوا بدينهم، فاستخفوا منه في الكهف**"[4]. فكان الكهف بذلك علامة على الأمان والسكينة وعلامة على حضور المقدس بل إنه كان المكان الأنسب والأقرب للتواصل مع العالم المفارق لأنه بهذا المكان حل الرب وحل الإيمان به واستمرت الحياة بعيدا عن عالم الخارج حيث واقع الوثن وحيث الموت والعدم.

- **الجب**

يحضر الجب في قصة يوسف فضاء للانتقام، إذ يتمكن الكره والحقد من الإخوة فيقررون قتله لأنه الأثير عند أبيه يعقوب وهو الأحب إليه[5]، غير أن واحدا من إخوته يفضل إلقاءه في الجب عساه يكون من نصيب بعض السيارة. جاء في الآية العاشرة قوله: "**قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ**"[6]. والجب هي البئر العميقة[7]، وإذا كان القرآن الكريم قد تكتم عن وصف هذا المكان فإن المتخيل الديني قد أفاض في رسم ملامح هذا المكان، فإذا بها بئر موحشة مظلمة ومهلكة ناهيك مثلا أن الثعلبي قد قال عنها "**كانت بئرا وحشة مظلمة أسفلها واسع وأعلاها ضيق يهلك من طرح فيها من سعة أسفلها لا يمكنه الصعود وكان ماؤها ملحا وكان الجب من حفر سام بن نوح ويسمى جب الأحزان**"[8].

---

[1] المرجع السابق، ص117.

[2] التوبة 9: 40.

[3] الكهف 18: 14.

[4] الطبري، ابن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م، المجلد 5، ص81.

[5] انظر: يوسف 12: 8.

[6] يوسف 12: 10.

[7] انظر: ابن منظور، محمد، لسان العرب، مادة (جبب).

[8] النيسابوري، الثعلبي، عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت. ص99.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

ويستحيل هذا الفضاء مكانا للانتقام ومكانا لشطب جسد يوسف وإلحاق الأذى به لأنه غير مرغوب فيه، إذ وجوده يشكل نشازا في عالم إخوته فمنتهى ما يصبو إليه الإخوة إنما التخلص من كيان يوسف. وإذا كانت البئر في أصل دلالتها الرمزية إنما تحيل على معنى السر والإخفاء والهلاك والجحيم[1] فإن الجب يستوي بهذا المعنى جحيما سيعيش فيه يوسف الضحية ألوانا من العذاب منها الجوع والعطش والعراء والظلمة وغيرها ويستوي أيضا مكانا لحجب يوسف وإخفائه لأنه في نظر الإخوة واقع لا بد يستر ويطمس وينسف إذ وجود يوسف مكدر لصفو الإخوة ومنغص لتوازنهم النفسي لأنهم الأقل حظوة عند أبيهم.

- **البحر**

البحار منبع المياه وقد عدت سواء في النصوص الأسطورية أو النصوص الدينية المقدسة عنصرا أساسيا من عناصر خلق الكون؛ لذلك ظلت حاملة للجوهر الإلهي. لم تكن البحار في القرآن الكريم أقل حظا من الجبال فقد تواتر ذكرها بصيغ الإفراد والمثنى والجمع في مواطن عديدة من النص، فهي من عجائب مخلوقات الله في الكون وهي أمارة إعجازه، لكن المتأمل في قصة موسى يلحظ أن البحر كان فضاء لنجاة النبي وأتباعه فهو المكان الظهير الذي عضد موسى في محنته لما تعقبه فرعون وجماعته للنيل منه لأنه بات مهددا للواقع الذي شيده فرعون واقع الكفر والجحود والاستعلاء والتكبر.

فقد استطاع موسى بفضل ما آتاه الله من المعجزات أن يقنع قوم فرعون بصدق رسالته لذلك انسحبوا معلنين تمردهم على فرعون وتوبتهم مردّدين:" **لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ والله خَيْرٌ وَأَبْقَى**"[2].

لكن فرعون توعدهم بالقتل والتعذيب والصلب فتدخل الله ليبطش بفرعون وقومه الضالين وأوحى لعبده موسى باختراق البحر بعد أن يشق له طريقا فيها جاء في نص القرآن الكريم قوله: "**وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى، فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ**"[3]. فحلت بذلك المعجزة الكبرى و"**انتفى الزمن الواقع وتخلت الطبيعة عن مسيرتها العادية وكانت اللحظة العجيبة، انشق البحر عن طريق للعبور، فعبر موسى وأهل موسى، ثم استأنفت الطبيعة مسيرتها العادية وعاد البحر إلى سالف أمره فغرق فرعون وقوم فرعون**"[4].

فكان البحر فضاء اختلقه الله لحماية عبده موسى، وكان في الآن ذاته علامة على الحياة والموت، على الأمان والعدم، إذ هو الملاذ الآمن لموسى وقومه وهو الفضاء المعدم لفرعون وأتباعه، فكان البحر بقاء وحياة

---

[1] جاء في معجم الرموز قوله:

« Le puits est par ailleurs symbole de secret, de dissimulation, notamment de celle de vérité, dont on sait qu'elle en sort nue. Il est encore, en Extrême-orient, symbole de l'abîme et de l'enfer ». voir Jean Chevalier & Alain Gheerbrant, Dictionnaire des symboles, éditions Laffont, article « puits », p.625.

[2] انظر: طه 20: 72-73.

[3] طه 20: 77-78.

[4] السعفي، وحيد، العجيب والغريب، ص593.

لموسى، بقاء لواقع الحق والإيمان الذي ثبته النبي، وكان موتا وعدما لفرعون لأن البحر ماء و"**الماء دعوة إلى الموت**"[1]، وكان رحيلا لواقع الكفر والطغيان الذي كرسه فرعون. لأن الموت "**رحيل**"[2].

وتكاد هذه الدلالة السيميائية تعاود نفسها في قصة نوح مع ابنه إذ يستحيل الطوفان مع النبي علامة بقاء واستمرار في واقع طاهر لا تشوبه شائبة، ذلك أنه لما تفاقم فساد قوم نوح وأمعنوا في غيهم وشركهم وأبوا الاقتناع بنصح نوح لهم أمر الله نوحا بصناعة الفلك وحمل من كلٍّ زوجين اثنين[3]، وركوب البحر لأنه "**لا شيء مثل الماء يرفع التشويه ويرفع الدنس**"[4]، ولما همَّ نوح بإقناع ابنه بمرافقته في الفلك حتى لا يكون في زمرة الكافرين[5]، امتنع وأجاب أباه قائلا: "**سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ**"[6]، ولكن قوة الله وجبروته كانت الأقوى، إذ أغرق ابن نوح و"**غمر الماء الأرض والناس الكفر والوثنية العمياء**"[7]. وكان الطوفان الذي نسف عالم الدنس والفساد ليستحيل علامة دالة على الحياة والبعث من جديد من جهة وعلى الدمار والهلاك والموت من جهة أخرى.

- **القرية**

ذكرت القرية في القرآن الكريم في ثمانية مواضع كما يجلوها لنا الجدول الآتي:

البقرة:5	النساء:7	الأعراف:16	الأعراف:16	يوسف:8	الأنبياء:7	الفرقان:4	العنكبوت:3
8	5	1	3	2	4	0	1

واللافت للانتباه أن الغالب على هذا المكان أنه بؤرة للشر والرذيلة والفساد. فالمتدبر مثلا للآية الثالثة والستين بعد المائة من سورة الأعراف يتنبه بيسر إلى هذا الأمر فقد جاء فيها قوله تعالى: "**وَسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسِقُونَ**"[8]، فقد ذكرت هذه القرية بوصفها المكان الذي تجلى فيه المقدس وبوصفها مكانا أعلن فيه أهلها مروقهم عن سلطة المقدس إذ تجلى الرب لأهل القرية فمنع عنهم اصطياد السمك يوم السبت بغية ابتلائهم وامتحانهم لكنهم تمردوا على أوامر الإله، إذ يذكر الثعلبي وهو يفسر هذه الآية أن رجالا من بني إسرائيل قد تحيلوا في تنفيذ الأمر الإلهي "**فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا إليها من الأنهار فإذا كانت عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فيقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا تطيق الخروج منها لبعد عمقها وقلة الماء فإذا كان يوم الأحد أخذوها، وقيل أنهم كانوا ينصبون الحبال والشخوص يوم الجمعة ويخرجونها يوم الأحد**"[9]، فالقرية إذن كانت على الكفر وعنف المقدس وجبروته.

---

[1] باشلار، غاستون، الماء والأحلام، ترجمة علي نجيب إبراهيم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، كانون الأول (ديسمبر) 2007م، ص89.

[2] المرجع السابق، ص114.

[3] انظر: هود 11: 40.

[4] السعفي، وحيد، في قراءة الخطاب الديني، نجمة الدراسات والنشر والتوزيع، تونس، 2008، ص143.

[5] هود 11: 42.

[6] هود 11: 43.

[7] السعفي، وحيد، في قراءة الخطاب الديني، ص143.

[8] الأعراف 7: 163.

[9] النيسابوري، الثعلبي، عرائس المجالس، ص255.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

أما في الآية الرابعة والسبعين من سورة الأنبياء والتي نصها: "**وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ**"[1]، فتلوح لنا القرية بؤرة للفساد واللواط فهي على هذا النحو علامة الدنس المقوض لنظام المقدس لأنها مكمن القذارة المهددة لنظام الطبيعة، لأن "**القذارة إنما هي إساءة للنظام**"[2] على حد تعبير ماري دوغلاس (Mary Douglas). فكانت القرية مكمن الفاحشة والفوضى الجنسية إذ شاع إتيان الذكور[3]، وإتيان الرجال شهوة[4]، ومباركة امرأة لوط المحرم والجنس الفاسد، باختصار لقد كانت القرية فضاء منبئا بغياب الطهر وبسوء استعمال المتع لأنه مكان يشرع لفوضى الجنس والشهوة العارمة واقتناص اللذة كيفما كانت.

- **البيت الحرام**

إن المتعقب لأثر كلمة "البيت" في نص الوحي الإسلامي يلحظ أنها لفظة تواتر ذكرها طي سور هذا النص في مواطن كثيرة منه. وقد سميت بمسميات عديدة، فهو البيت والبيت الحرام والبيت المحرم والبيت العتيق والكعبة والبكة. وإن المتدبر في معاني الآيات التي توفرت على هذه الكلمة يلحظ أن هذا المكان كان مكانا مغايرا لأنه كان مقدسا "**إذ كل مكان مقدس ينطوي على تجل مقدس، وعلى تفجر للقدسي ينتج عنه انفصال إقليم عن محيطه الكوني فيجعله مختلفا عنه نوعيا**"[5]، وهو مغاير لسائر الأمكنة لأن محور القداسة فيه تغير، إذ كانت الكعبة قبل الإسلام "**سكنا للآلهة المعبودة بما أنها كانت ملأى بالأصنام**"[6]، فإذا بها تضحى مأوى لله وتصبح علامة دالة على الوحدانية لا التعدد. يقول تعالى: "**وَإِذْ بَوَّأْنَا إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا**"[7] وكان هذا الفضاء أيضا علامة على تفجر القدسي، وسكنا للروح الإلهية التي لا يمكن معانقتها إلا بالطواف حول هذا المكان والتعبد فيه فقد "**جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ**"[8]. وهو مكان مقدس طاهر شيده النبي إبراهيم بمعونة ابنه إسماعيل بأمر من الله تعالى مثلما تجليه الآية في سورة البقرة: "**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**"[9]. بل إن المسلمين كانوا ملزمين بالطواف والركوع والسجود وإقامة الشعائر والطقوس الدينية مثلما نص على ذلك القرآن[10]، ولأنهم مقتنعون أن هذا المكان هو مركز القوة العليا وهم في حماه وتحت رعايته.

---

[1] الأنبياء 21: 74.

[2] تقول (Mary Douglas):

« La saleté est une offense contre l'ordre ». voir Mary Douglas, De la souillure, Paris, 1981, p.24.

[3] انظر: الشعراء 26: 165.

[4] انظر: الأعراف 7: 81.

[5] إلياد، مرسيا، المقدس والدنيوي، ص25.

[6] المسعودي، حمادي، متخيل النصوص المقدسة في التراث العربي الإسلامي، دار المعرفة للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2007م، ص35.

[7] الحج 22: 26.

[8] المائدة 5: 97.

[9] البقرة 2: 125.

[10] انظر: الحج 22: 26–29، المائدة 5 :97، آل عمران 3: 97.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

- **بطن الحوت**

يبرز هذا المكان بوضوح في مقطع قصير وفريد من القصص القرآني يقع بسورة الصافات، جاء فيه قوله تعالى "**وَإِنَّ يُونِسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ، فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ، فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ**"[1]. ويبدو أن بطن الحوت كان الملاذ الآمن ليونس بتدبير إلهي بعد أن عصى الله الذي رماه أولا في عمق اليم من أجل امتحانه فكان البحر أمارة على غضب الإله وعظمة جبروته ولكنه سرعان ما أنقذه لما أذن للحوت بالتقامه، فكان بطن الحوت الفضاء الآمن الذي كفل ليونس نجاته وخلاصه من الموت واستحال حضنا أموميا حميميا بامتياز، إذ "**انقلب الحوت المفترس حضنا دافئا، وانقلب الرب الغاضب راعيا للحوت الذي يحمل الفريسة إلى مثواها عند ربها... لقد منع عليه أن يأكل منه اللحم أو يهشم منه العظم**"[2]. بعد أن أناب يونس إلى ربه مسبحا معربا عن ندمه[3]، باختصار لقد كان بطن الحوت فضاء الأمن والأمان والسكينة وفضاء الحياة المتجددة.

- **النخلة**

تبوأت النخلة منزلة مهمة في ضمائر الشعوب والحضارات القديمة؛ لذلك قدستها "**فمعظم الأقوام السامية قد قدست النخل وقد جعل المصريون القدماء النخل شجر الفردوس والجنة**"[4]، وفي العصر الجاهلي قدس العرب النخلة في نجران حتى عبدوها، بل إن طوائف منهم "**اتخذت من التمر معبودا صنع على شكل صنم**"[5] ولكن قيمة النخيل مكينة في عصور أقدم من الحضارة السامية، ذلك أن سكان وادي الرافدين اعتبروا "**السعفة رمز الخير والبركة والفرح والترحيب والانتصار ورمزا للخصوبة**"[6]، لذلك كانت النخلة حاضرة في فنون هذه الأمم الغابرة في نقوشهم الجدارية وأختامهم الإسطوانية[7]، بل لقد نصت عليها شرائعهم القانونية لا سيما شريعة حمورابي التي أكدت على ضرورة حماية هذه الشجرة[8] لأنها مصدر غذائي وطبي مهم. كما تيمن بها أهل الرافدين فكانت حاضرة في طقوسهم الجنائزية وفي احتفالاتهم لأنها كانت عنوانا للفرح والسعادة وكانوا لا يعقدون اجتماعا إلا تحت فيئها كما عدوها رمزا للخصوبة فاعتبروا "**تاج النخلة رمزا لإله الخصوبة تموز ولعلهم أرادوا بذلك تاج النخلة الفحل، بينما اعتبروا النخلة رمزا لآلهة الخصوبة عشتار ولعلهم أرادوا بذلك النخلة الأنثى**" [9].

واستمرت قداسة النخلة أيضا في الديانات التوحيدية فاعتبرت شجرة الأنبياء ورمز الحكمة كشأن النخلة التي جلست تحتها النبية دبورة تدير شؤون قومها[10]، أما في المسيحية فقد "**حظيت السعفة بمكانة مرموقة حيث**

---

[1] الصافات 37: من 139 إلى 144.

[2] السعفي، وحيد، العجيب والغريب، ص499.

[3] انظر: الأنبياء 21: 87.

[4] باقر، طه، دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية، مجلة سومر، عدد 8، ص32.

[5] عبد الرحمن، عبد المالك يوسف، مجلة آداب الرافدين، عدد 15، 1 يناير 1982م، ص285.

[6] المرجع السابق، ص279.

[7] راجع في هذا الصدد: الصالحي، واثق إسماعيل، النخيل في الفن العراقي القديم، مجلة آثار الرافدين، ج2، مجلد 6، 2021م

[8] انظر: السامرائي، محمد رجب، النخلة في حضارة وادي الرافدين في العراق، الشجرة المباركة، يونيو 2009م، ص61.

[9] عبد الرحمن، عبد المالك يوسف، النخلة في وادي الرافدين، ص289.

[10] انظر: القضاة 4: 4-5.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

ولد تحتها السيد المسيح عليه السلام وكان لسعفها أهمية رمزية كبيرة فالسيد المسيح رفعها بيده عندما دخل القدس دلالة على الطمأنينة والخير والأمان وفرش أنصاره طريقه بالسعف فرحا وترحيبا بمقدمه"[1].

أما في الإسلام فقد اعتبرت النخلة شجرة مباركة يتيمن بها إذ هي تعويذة سحرية قد تقي الإنسان خطر السحر مثلما أجلته بعض الأحاديث النبوية[2]، وذكرت في القرآن الكريم في ستة وعشرين موضعا محضت منها ست عشرة آية للحديث عن فوائدها. غير أن ما يسترعي انتباه القارئ المتبصر بآيات نص الوحي ما اكتنزته النخلة من معاني غميسة في قصة مريم، فقد كانت النخلة الفضاء الأرحب لحدث الميلاد وللمعجزة، إذ لما انتبذت مريم مكانا قصيًّا فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة[3]، وبعد أن وضعت وليدها أمرها الله بأن تأكل من ثمار هذه النخلة وأن تشرب، فهو القائل: "**هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا**"[4]. فاستحالت بذلك النخلة فضاء دالا على معنيي الخصوبة والحياة خصوصا وأن النخلة التي أوت إليها مريم حسب نصوص التفسير كانت يابسة[5] و"**نخرة ليس لها سعف**"[6]، ولا ثمر بها، فكانت بهذا المعنى فضاء للبعث والولادة والخلق والحياة بعد الموات وهي دلالة نلفيها مبثوثة طي أساطير الإغريق الذين يعدّون نخلة معبد فوريوسس في ديلوس فضاء للحياة المتجددة "**لاعتقادهم أن الآلهة ليتا قد أمسكت بجذع هذه النخلة عندما أوشكت على وضع ابنها التوأم (أبولو)**"[7].

الخاتمة

لقد تعلقت همتنا في هذه الدراسة بالبحث في سيميائية المكان في القرآن الكريم؛ فلاح لنا أن الأمكنة متعددة بعضها متصل بالعالم السماوي وبعضها متعلق بالعالم الأرضي، كما اتضح لنا أن المكان في هذا النص المقدس بدا علامة سيميائية مهمة اكتنزت عديد المعاني إذ المكان كان دالا على الخلود والأمان والسكينة والوحدانية وجبروت المقدس والحياة المتجددة. باختصار لقد استحال المكان نصًّا "**ينبئ بقدر ما يحجب ويفضح بقدر ما يخفي**"[8] إذ هو كيان منفتح على القراءة وهو يحتمل التأويل؛ لذلك كشف عما كان محتجبا ومتواريا بين منعطفاته لأنه كان رمزا ينطوي على فراغات ما كان لنا أن ندرك كنهها لولا عملية التأويل التي أكسبت المكان هوية، فجعلته معبّرًا عن التاريخ الإنساني، عن قصة الخليقة، ومؤسسا للقصص النبوي في نص الوحي الإسلامي.

---

[1] عبد الرحمن، عبد المالك يوسف، النخلة في وادي الرافدين، ص293.

[2] راجع في هذا الصدد مقالنا حول النبات في المتخيل الديني: قراءة في دلالات النخل والتين والزيتون من خلال نماذج من النصوص الدينية، مجلة جامعة بابل للعلوم الإنسانية، العراق، مجلد 28، عدد 5، سنة 2020م.

[3] انظر: مريم 19: 21-22.

[4] انظر: مريم 19: 25-26.

[5] انظر: الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1994م، مجلد 5، ص152.

[6] الطبرسي، أبو الفضل بن الحسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2005م، ج6، ص319.

[7] عبد الرحمن، عبد المالك يوسف، النخلة في وادي الرافدين، ص293.

[8] حرب، علي، نقد الحقيقة، ص15.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

المصادر والمراجع

المصادر

القرآن الكريم، اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة، 1405هـ.

المراجع

- ابن منظور، لسان العرب، دار الجيل، د.ت.
- ابن هشام، محمد، السيرة النبوية، مؤسسة النور للمطبوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى 2004.
- إلياد، مرسيا، المقدس والدنيوي، ترجمة نهاد خياطة، العربي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، الطبعة الأولى 1987.
- بارت، رولان، مبادئ في علم الدلالة، ترجمة محمد البكري، عيون المقالات، الدار البيضاء، الطبعة الأولى 1986.
- باقر، طه، دراسة في النباتات المذكورة في المصادر المسمارية، مجلة سومر، عدد 8.
- بنكراد، سعيد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، الطبعة الثالثة، 2021م.
- بنوا، لوك، إشارات ورموز وأساطير، عويدات للنشر والطباعة، بيروت، لبنان، د.ت.
- الثابت، زهرة، النبات في المتخيل الديني: قراءات في دلالات النخل والتين والزيتون، مجلة بابل للعلوم الإنسانية، العراق، ج28، عدد 5، 2020م.
- الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1990م.
- جمعة، مصطفى عطية، مصطلح المكان: المفهوم والسيميوطيقا، مقال صادر بجريدة الرأي، بتاريخ 17 أغسطس 2014م.
- الجميلي، عامر عبد الله، الجبل في الكتابات العراقية القديمة، كلية الآثار، الموصل.
- حرب، علي، نقد الحقيقة، المركز الثقافي العربي، الطبعة الأولى، 1993م.
- حسين، فهد، المكان في الرواية البحرينية، دراسة في ثلاث روايات (الجدوة، حصار، أغنية الماء والنار)، دار فراديس، البحرين، الطبعة الأولى، 2003م.
- الحمداوي، جميل، السيميولوجيا بين النظرية والتطبيق، دار الريف للطبع والنشر الإلكتروني، الناظور، تطوان، المغرب، الطبعة الثالثة، 2020م.
- الزاهي، فريد، النص والجسد والتأويل، إفريقيا الشرق، المغرب، 2003م.
- السامرائي، محمد رجب، النخلة في حضارة وادي الرافدين في العراق، الشجرة المباركة، يونيو 2009م.
- السعفي، وحيد، العجيب والغريب في كتب تفسير القرآن، الأوائل للنشر والتوزيع، سوريا، دمشق، الطبعة الأولى، أيار 2006م.
- السعفي، وحيد، في قراءة الخطاب الديني، نجمة الدراسات والنشر والتوزيع، تونس، 2008م.
- سيفون، باية، محاضرات في السيميولوجيا، جامعة محمد بوضياف بالمسيلة، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، سنة 2015-2016م.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022

- شاهين، أسماء، جماليات المكان في رواية جبرا إبراهيم جبرا، دار الفارس للنشر والتوزيع، الأردن، 2001م.
- الشرفي، عبد المجيد، الإسلام والحداثة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1990م.
- شعراوي، عبد المعطي، الأساطير الإغريقية، الهيئة المصرية للطباعة والنشر، د.ت.
- صبطي، عبيدة، وبخوش، نجيب، مدخل إلى السيميولوجيا، دار الخلدونية للنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009م.
- الصالحي، واثق إسماعيل، النخيل في الفن العراقي، مجلة آثار الرافدين، ج2، ج6، 2021م.
- الطبرسي، أبو الفضل، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 2005م.
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1994م.
- عبد الرحمن، عبد المالك يوسف، النخلة في بلاد الرافدين، مجلة الرافدين، عدد 15، 1 يناير 1982م.
- غاستون، باشلار، الماء والأحلام، ترجمة علي نجيب إبراهيم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، كانون الأول (ديسمبر) 2007م.
- قاسم، سيزا، القارئ والنص، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م.
- المسعودي، حمادي، متخيل النصوص المقدسة في التراث العربي الإسلامي، دار المعرفة للنشر، تونس، الطبعة الأولى، 2007م.
- النيسابوري، الثعلبي، عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت.
- Jean Chevalier & Alain Gheerbrant, Dictionnaire des symboles, éditions Laffont, Paris,
- Mary Douglass, De la souillure, 1981.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والإبتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2022